الحضـــــارة المصرية
فى عهد الدولة الوسطى

بحث للعلامة الأثرى أريك بيت

للاســـتاذ أحمد نجيب هاشم

عهد الاقطاع :

يطلق عادة على الدولة الوسطى — وتشمل بمعناها المحدود الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق . م) — عهد الاقطاع أى أن نظام المجتمع كان يشبه ذلك النظام الذى ساد فى أوربا فى العصور الوسطى — فهناك على رأس الحكومة يقوم الملك ، وهو لا يزال نظرياً مصدر السلطات كلها ، والكاهن الأكبر لكل الآلهة ، والمشرّع الوحيد — ويليه عدد كبير من الأمراء المحليين يتسلمون أراضيهم منه ، ويدينون له بالولاء ، ولكنهم مستقلون عنه فى إماراتهم ومقاطعاتهم استقلالا يكاد يكون تاماً . على أنه لا ينبغى أن نغالى فى الفرق بين هذه الأحوال وتلك التى سادت فى عهد الدولة القديمة . فالفرق كان فرقاً فى الكمية أكثر منه فرقاً فى الكيفية .

ففى أواخر الأسرة السادسة سقطت مصر فى فوضى شديدة نظراً لعجز الملوك عن الإشراف على الأمراء الأقوياء وضبطهم ، ثم لاغارة قبائل « عامو » الأسيوية على الدلتا . فاستقل أمراء المقاطعات وصاروا يتنازعون فيما بينهم ، فاضطرب الأمن واختلت أحوال البلاد ؛ لذلك كان تاريخ تلك السنوات مظلماً ، وعند ما ينبثق النور نجد الحكم فى يد أسرة من الأمراء مقرها هيراقليوبوليس فى مصر الوسطى — وقد ذكر مانيتون أنهم كونوا الأسرتين التاسعة والعاشرة — ونجد فى الجنوب أسرة أخرى تقوم بالحكم فى طيبة . هذه هى الأسرة الحادية عشرة ، وقد عاصرت الهيراقليوبوليسيين مدة ما ، ولا بد أن نزاعاً شديداً قام بين هاتين الأسرتين ثم انتهى بانتصار الجنوب انتصاراً حاسماً.

ولما تولى الحكم الطيبيون ملوك الأسرة الثانية عشرة ، واجهتهم حالة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى صادفت الملك مينا عند ما وحد القطرين — فقد انتهز الأمراء المحليون سنوات الاضطراب وعادوا إلى توطيد سلطتهم ، وتقوية نفوذهم حتى تجرأ أمراء « مقاطعة الأرنب » على قطع المرمر من محاجر حاتنوب ، وكان هذا الحق مقصوراً على الملك وحده ، وزيادة على ذلك أخذوا يؤرخون نقوشهم التذكارية هناك بتاريخ سنوات حكمهم الشخصى — وقد وجد أوائل ملوك هذه الأسرة الجديدة تلك العناصر المتفرقة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليها فقبلوا حلاً وسطاً وذلك أنهم مقابل الولاء الذى طلبوه من هؤلاء الأمراء سمحوا لهم أو على الأقل لم ينكروا عليهم درجة كبيرة من الاستقلال المحلى .

إخضاع أمراء الاقطاع :

ولم يشعر الطيبيون أنهم فى مركز قوى يسمح لهم بإخضاع أولئك الأتباع المشاكسين حتى تولى الحكم سنوسرت الثالث كما يتبين ذلك من توقف الأمراء فجأة عند بناء مقابرهم الصخرية فى عهده بجهات البرشة وبنى حسن ومير — ثم عاد الأمراء إلى تقوية نفوذهم فى عهد أمنمحيت الرابع . فعادت الفوضى الداخلية إلى البلاد مرة أخرى ، ووقعت فريسة فى أيدى الغزاة الأسيويين المعروفين بالهكسوس .

ويقتضى هذا النظام الاقطاعى كانت سلطة الأمير فى إقطاعيته تكاد تكون هى السلطة العليا . أجل كان بديهياً أنه عند ما تخلو إقطاعية من أميرها تعود إسمياً لفرعون كى يهبها مرة أخرى ، ولكن لعله كان من الصعب عليه أن يرفض الوارث الشرعى حقه فيها ، وقد وضح أحد أمراء أسيوط فى العقود الكثيرة التى عقدها مع كهنة المعبد المحلى كى يتولوا تقديم القرابين لمقبرته بعد موته — الفرق بين ميراثه عن أبيه ، وبين أملاكه بحكم وظيفته كأمير فالأولى يتصرف فيها بلا قيد ولا شرط حتى عن المستقبل ، والثانية لا يستطيع أن يتصرف فيها بعد موته

— وظل الملك كما كان الحال فى عهد الدولة القديمة — حقوق مالية فى كل أقليم، وكان موظفو الخزينة العليا يجمعون الضرائب .

القانون :

كان الوزير ساعد الملك الأيمن فى كل المسائل الإدارية والقضائية ، ولا نعرف عن نظم القضاء نفسها أكثر مما نعرفه عنها فى عهد الدولة القديمة ؛ بل ولا نستطيع أن نقول إلى أى حد كانت هناك مجموعة من القوانين التى تعالج الجرائم الجنائية — بيد أن معلوماتنا عن القانون المدنى أحسن وأوفر ، فنجد بين نقوش مِنِن سلسلة من الوصايا تنتسب إلى حكم سنفرو أحد ملوك الأسرة الثالثة ، وهى على رغم قدمها تدل على الدرجة الراقية التى وصلها قانون العقار إذ ذاك ، وبين النقوش الواردة على جدران مقابر الأسرة الخامسة وصايا كثيرة عن أراض نظير خدمات جنائزية يقوم بها الموصى إليه لصاحب الوصية — كذلك تحوى أوراق البردى التى عثر عليها فى اللاهون عدداً من العقود والوصايا مكتوبة بأسلوب راق وتعبيرات فنية تدل على أن كتابها محامون فنيون ولو أن هؤلاء لم يتمتعوا بلقب غير لقب الكاتب وهو بالهيروغليفية « سش » .

وأهم الوثائق كلها هى الواردة فى نقوش مقبرة الأمير حبفظا أمير أسيوط السالف الذكر ، وفيها يعقد بصفته رئيس كهنة معبد أبواوت إله أسيوط المحلى عشرة عقود مع الكهنة يتنازل فيها عن جزء من نصيبه الحالى فى القرابين التى تقدم إلى المعبد مقابل خدمات يقوم بها الكهنة له بعد موته — وهنا نجد التمييز القانونى بين ما يملكه الشخص بصفته الفردية وما يملكه بصفته موظفاً ، وبين هذه العقود واحد يعقده الأمير بين نفسه بصفته الفردية وبين رئيس كهنة أبواوت بصفته موظفاً ، وغنى عن الذكر أن رئيس الكهنة هنا هو حبفظا نفسه

تدل هذه الوصايا والعقود على أن قانون العقار كان موجوداً ومحترماً فى مصر فى عهد الدولة الوسطى . والغالب أن القانون الجنائى لم يكن أقل تقدماً . ولا غضاضة علينا فى أن نجرؤ فنظن بأن الأربعين درجاً التى حوت هذا القانون والتى كانت تبسط أمام الوزير فى محكمته فى أيام الأسرة الثامنة عشرة كانت موجودة بشكل ما أيام الأسرة الثانية عشرة .

الديانة والأخلاق :

ما مبلغ دلالة هذا النظام القانونى على وجود قانون خلقى ؛ ثم إلى أى حد كان لهذا إن وجد — أساساً دينياً ؟ — هذه أسئلة ليس من السهل الإجابة عليها ، وإن الصورة الناقصة التى لدينا عن الديانات المصرية أيام الدولتين القديمة والوسطى تمثلها كأنها شىء شكلى غير شخصى ، فمعبود الشمس « رع » الذى علت منزلته حوالى بداية الأسرة الخامسة ، وكان منديجاً مع المعبود حوريس فى شكل « رع حوريس الأفق » اندمج مرة أخرى بالإله آمون إله طيبة لما ارتقت منزلته بارتقاء الأسرة الثانية عشرة الطيبية الحكم ، وسمى « آمون رع » .

ولكن مما لا ريب فيه أن كان هذا الإله المصرى العادى شيئاً بعيداً غامضاً ؛ فقد كان اهتمامه الدينى — مركزاً فى إله مدينته أو إقليمه . بل وهنا أيضاً كانت الديانة مجرد احترام للتقاليد والطقوس أكثر من كونها صادرة من الضمير ، فالنقوش التى دونها الأمراء على جدران مقابرهم ، وتباهوا فيها بأعمالهم فى حياتهم قلما تشير أو قد لا تشير بالمرة إلى أداء العمل الطيب لذاته أو لأن الآلهة تحض عليه . كذلك تعطينا أوراق البردى التعليمية الفكرة نفسها فحيثما تحث على اتباع الأمانة تحض عليها لمجرد أنها « تفيد » صاحبها .

وفى الوقت نفسه يمكننا أن نتتبع فى الدولة الوسطى بداية ظهور مقياس خلقى واعتقاد الحساب فى الآخرة ، وهذا راجع إلى حد ما إلى انتشار عقيدة أوزيريس الذى اعتقد فيه أهل الدولة الوسطى أنه يسكن أبيدوس كإله الموتى ، فنرى فى النقوش الواردة على توابيت هذه الفترة أول إشارات إلى هذا الإله بأنه القاضى الذى يعرف الحق من الباطل ، وهذه فكرة لم تبلغ تطورها التام إلا فى عهد الدولة الحديثة فقط ؛ فلم تكن هناك فى الدولة الوسطى قائمة الآثام المعروفة التى كان يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس بالاعتراف السلبى .

ولكن ما مقدار هذا الخوف من حساب الآخرة ؟ أليس

من المرجح أن القوم فى الدولة الوسطى اعتقدوا كما اعتقد خلفهم فى الدولة الحديثة بصحة التعاويذ السحرية التى كانت تدفن مع الميت سواء أكانت فى شكل نقوش على تابوته أم كانت لفة من ورق البردى ، واعتبروها حامية كافية له ضد عواقب حياة أثيمة ؟ وإذا فرضنا أن نشأة الاعتقاد فى الحساب فى الآخرة تدل على نهوض وازع خلقى ألا يظهر كأن السحر سرعان ما قدم مسكنا دفع ذلك الرادع الثائر إلى النوم مرة أخرى ؟

الواقع أن هذه أسئلة يصعب الإجابة عليها نظراً لقلة الأدلة التى لدينا فمن الصعب أن نقرر شيئاً حاسماً فى هذه المسألة فى حالة أمة تعيش الآن ناهيك بشعب مضى فان هذا عادة يكاد يكون من المستحيل .

العناية بنظام الرى :

وإذا انتقلنا من هذه الناحية الخلقية من الحياة المصرية إلى الناحية المادية واجهتنا مسألة أسهل . فهنا مع أن أحوال المعيشة العامة لم تتغير فى بعض نواحيها عما كانت عليه أيام الدولة القديمة إلا أنه من الممكن أن نذكر تقدماً جد عليها ، ويرجع هذا التقدم إلى أمرين أولهما : نمو التجارة الخارجية ، وثانيهما : تحول الفراعنة عن تسخير الرعية فى أعمال لا فائدة منها أى فى بناء الاهرام ، إلى العمل النافع الذى يعود على البلاد بالخير وهو تحسين نظام الرى . وسنبحث هذا الموضوع الآن ، أما الأمر الأول فسنؤجل التكلم عنه إلى مكان آخر فى هذا البحث .

لما كانت واحة الفيوم فى منخفض عن سطح البحر كان فيضان النيل يعمها كل عام ويحولها إلى بحيرة عظيمة ، وفطن ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى خزن كمية عظيمة فى تلك الجهات ، وتصريفها وقت التحاريق كى تطول مدة رى الوجه البحرى — أى إن الفكرة كانت تشبه الفكرة الخاصة بخزان أسوان الحديث . ولا يعرف بالضبط من من فراعنة الأسرة الثانية عشرة نفذ هذا المشروع ، وإن كان قد جرى العرف على نسبته إلى أمنمحيت الثالث — وقد عمل المشروع على كسب أراض شاسعة للزراعة من تلك المساحات الهائلة التى كان يغمرها ماء الفيضان عند مدخل الفيوم ، وذلك ببناء سور عظيم .

الحالة الاجتماعية :

الرقيق : سرعان ما ظهرت نتائج هذه الاصلاحات فى زيادة رفاهية البلاد . نعم إن الرقيق لم تتغير حاله عما كانت عليه أيام الدولة القديمة ، والواقع أنها قلما تغيرت طول عصور التاريخ المصرى .

الأشراف :

أما النبيل المصرى فقد عاش عيشة الترف والمتعة ، واقترن بها فى بعض الأحوال عناية طيبة وشفقة بأولئك الذين يخضعون لسلطته . هذا طبعاً إذا صدقنا النقوش الواردة على مقابر الأشراف . ففيها نقرأ أن النبيل كان يطعم الجوعان ويكسو العريان ، وينقل فى سفينته عبر النيل من ليست له سفينة — وفى وقت المحن كان يمد إقليمه بالغلال ، ولعل دعواه فى أنه لم يسلب أرملة أو يغتصب حق يتيم لم تكن مجرد عبارات تقليدية ترددها النقوش — وقد أولع الأشراف بالرياضة فكان النبيل يخرج على قدميه لصيد ما يجده من حيوان فى الصحراء ؛ أو يركب قارباً من البردى يمخر به المستنقعات لصيد السمك بالحراب أو وحش الطير بعصا صغيرة .

ظهور الطبقة الوسطى :

كان ظهور طبقة متوسطة وفيرة العدد من أهم الميزات الاجتماعية للدولة الوسطى ، ولهذه الطبقة مقابر كثيرة فى أبيدوس حيث تخيل المصريون وجود قبر الإله العظيم أزيريس وتمنى كل مصرى صالح أن يدفن على مقربة منه . وكان إذا أدرك استحالة ذلك قام على الأقل بالحج إليه أو أوصى بأن تحمل جثته بعد تحنيطها إلى أبيدوس لتحضر احتفالا دينياً قبل أن ترقد فى مقرها النهائى فى مدينته أو إقليمه — وهكذا كانت أبيدوس مركزاً دينياً هاماً فى القطر المصرى .

(للبحث بقية)

أحمد نجيب هاشم